لمياء الإرياني «امرأة ولكن»..

محمد الغربي عمران

«امرأة ولكن» رواية قصيرة للاديبة لمياء الارياني وهي الحائزة على جائزة المقالح في دورتها الأولى ٢٠١١م (١٤٥) صفحة من القطع الصغير غلاف الرواية بمشهد امرأة تتلفع بستارة مزخرفة لا يظهر منها إلا كتفها، خلفية المشهد دار صنعاني بجمال أفاريزه وزخارف واجهته.

الكاتبة أهدت عملها إلى كل نساء العالم حيث تدعوهن إلى تحويل اليأس حياة عبر فتح نوافذ الأمل والفرح والعطاء وقد سطر الأديب العربي الكبير الدكتور عبدالعزيز المقالح في مقدمته للرواية ما يلي (أكتفي بالاشارة إلى أن رواية (امرأة ولكن) تطرح أكثر من قضية تتعلق بالمرأة وبالوطن وبالأوضاع الاجتماعية التي تعاني كثيرا من العوز والبعد عن الاستواء) .

ويأتي السطر الأول من متن الرواية بالتباساته (لست مثل كل النساء) .. يداهمنا ايحاء بأنها قد تكون في مكانة أروى .. أو الولادة أو زنوبيا أو كليو باترا .. إيحاء بامرأة فريدة ليست مثل سائر النساء ليسحبنا واقع الشخصية حين نكتشف أن الراوي وهي الشخصية المحورية في العمل بائعة خبز (ملوج) تقف على الرصيف تعرض سلعتها .. تعود بذاكرتها بين وقت وآخر إلى ماضي أيامها .. لنكتشف بأنها عاشت طفولة بائسة بإعاقتها التي تمثلت بشلل الأطفال في ساقيها .. ودمامة في تقاطيع وجهها .. وهنا ندرك بأن الكاتبة قد توفقت في عنوان روايتها .. إضافة إلى الجمل الأولى.

وكونها العمل الأول للكاتبة في جنس الرواية .. يحسب لها بأنها تخطت الكثير من كبوات العمل الأول .. وقدمت لنا من حيث إختيار الموضوع .. موضوعا معاشا وواقعياً .. بائعة خبز .. فبعد أن قرأت العمل أضحيت كلما شاهدت فتاة على رصيف شارع كلية الشرطة أو في القاع أو باب السبح تعرض خبزها أو رقائق اللحوح .. أبحث عن (أمنة) بطلة (امرأة ولكن) بين تلك الفتيات .. أتذكر أحداث الرواية .

وكم كنت أتمنى على الكاتبة لو أنها جعلت الرواية (أمنة) تحكي لنا عن معايشتها اليومية.. عن حياتها بائعة ملوج بدلا من العودة لماضي طفولتها .. أو لو أنها أضافت الحياة المعاشة من على رصيف :

إن بائعة الخبز (الملوج) شخصية يمنية فريدة لم تستغلها الكاتبة رغم أن اختيارها لها كشخصية اساسية لعملها .. ومن خلالها كان بمقدورها نسج عمل فني أكثر إبهارا .

وكلامي هذا لا يعني انتقاصا لامرأة ولكن .. فتلك الذكريات التي استخدمت الكاتبة أسلوبها في سرد الرواية سلطت الضوء على معاناة المرأة في هذا الجزء من العالم خاصة المعاقة .. إضافة إلى تصوير جلسات القات النسائية التي تجمع النساء من كافة الشرائح والمستويات .. الخادمة وزوجة الوزير والخفير وربة البيت كلهن سواسية في تلك الجلسات حيث يكون القاسم المشترك (المداعة) و(القات) والثرثرة .

وذلك الحشد من المفردات المحلية التي صبغت متن الرواية بنكهة صنعاء مثل عَمّري .. مقرمة .. ستارة .. زنة .. قوارة.. قات .. مبخرة وملوح .. ملوج .. إلخ تلك المفردات التي جاءت على لسان شخصيات الرواية .. وهي مفردات سكان المناطق الوسطى فقد لا يفهمها سكان تهامة أو حضرموت أو حتى تعز ،. واستخدامها يعطي الدفء للقارئ ونقيضه لم يفهمها فما بالنا بالقارئ العربي الذي قد يجد صعوبة في فهمها وما يأتي من توضيح في الهوامش .

والراوي هي الشخصية الأساسية (آمنة) ومع ذلك استخدمتها الكاتبة كصوت ثانٍ توجه كلامها للكاتبة .. وفي هذا حاولت الكاتبة كسر رتابة الصوت الواحد .. لكن بنفس الصوت وكنت أفضل لو لم تستخدم ذلك .. حيث أن ذلك الصوت لم يخدم لا تنامي الحدث ولا الشخصية وإن كانت تحسب للكاتبة محاولتها تلك رواية حزائنية .. وليست جنائزية .. حين تقف آمنة بساقيها المعطوبتين على رصيف الحياة .. تمد بين كفيها خبزها .. تبحث عن الحب والامان .. عن منافذ لنسيان العوز والحرمان لتغرق في ترحال ذاكرتها إلى تفاصيل بؤس طفولتها وإعاقتها راصدة تلك التفاصيل الصغيرة للفوارق بين الميسور وغير الميسور .. بين الفتاة والولد .. بين السليم والمعاق، تبحر في زوايا عتمة الإعاقة على مركب الذكرى .. وكنت اتمنى لو أن الكاتبة ازالت تلك العبارات التي كانت تظهر كصوت نشاز آخر للراوية .. حيث أفقدت جمالية قدرتها على البوح والحكي.

أما سرد حكايات الحاضر فقد أقلت .. وأضرت بإقلالها وكان بمقدورها أن تترك لآمنة أن تحكي معاناتها كفتاة في مقتبل العمر وحيدة وما تعانيه .. وما تراه .. لو

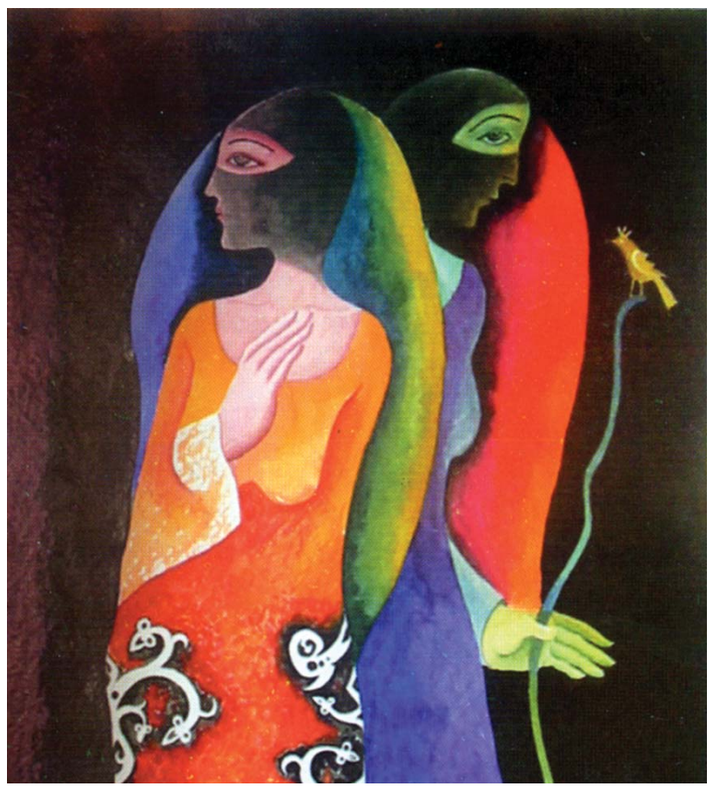

فعلت لكان للرواية جناحا الماضي والحاضر تحلق بهما .. وما أكثر عيوب الحاضر وما أروع حين تعالج عبر شخصية بائعة الخبز ولو انني كنت أحبذ أن لا تكون معاقة حتى يبتعد السرد عن أوضاع التسول .. إلى عوالم الإغواء وسبر أغوار نفسية مجتمعنا.

شخصيات الرواية شخصيات متفاعلة .. بل إن القارئ يتفاعل مع ظروف تلك الشخصيات ويتعاطف معها .. ابتداء بآمنة .. ومرورا بسيارة صديقتها وأمها زينب .. وحبيبها الطفولي أحمد وولدة وسارة وقوت المتسولة والخادمة الحبشية .. وخالد عريس سارة إلى فاطمة ، حرب صيف ١٩٩٤م تمثلت في حدث سقوط الصاروخ على المستشفى الجمهوري واستشهاد حبيبها المفترض (أحمد) .. الحدث الأبرز الذي تماست الرواية مع ما يعيشه الوطن وما تتهدد أمنة وحدته بل ونظامه الجمهوري إذا ما وضعنا على المحك توجهات القاعدة وتطلعاتها في اليمن.

تلك العلاقات بين شرائح وطبقات المجتمع.. علاقات الاستغلال .. علاقة المعاق بمحيطه وهو الموضوع الإنساني الذي عالجته الرواية .. وقد أجادت الكاتبة في ذلك . رغم محاولتها جمع أكثر من موضوع .. لكنها الاعاقة والمرأة أخذت بتفاصيل العمل .

لن أقول ماذا تبقى.. فهذه إطلالة عجلى لرواية تستحق القراءة وتستحق أن تتناولها أقلام النقاد بالتشجيع كونها الرواية الأولى لشاعرة وقاصة تبشر بمولد روائية تمتلك أدوات السرد الروائي ،، ففي الرواية مواطن عدة تشد القارئ والمتابع لفن السرد.. منها المكان (صنعاء) ومعالجة الكاتبة للمدينة وما حشدته من أغان تراثية وشعبية تردد في أيام النفاس.. أو أثناء احتفال الأعراس والذهاب إلى الحمام البخاري وغيرها علاقة أفراد الأسرة بخدم المنازل.. الأزياء وما يتصل بكبت حرية المرأة والأزياء المفروضة.

هي تحية للمبدعة لمياء الارياني والتي ننتظر منها أعمالاً روائية جديدة تغوص لتعالج بكل جرأة أوضاع المرأة في زمن يمجد فيه العقل والصدق.. ويكرم فيه الإنسان .

رواية تستحق العناية بها من حيث طباعتها بأعداد مناسبة للتوزيع والوصول إلى يد القارئ العادي عبر منافذ البيع في المكتبات والاكشاك المنتشرة في مدننا والترويج لها بشكل كاف مع تقديري .

ما يلفت الانتباه.. تفوق الأصوات النسائية في كتابة القصة القصيرة .. ففي البدايات الأولى للقصة في اليمن لم تبرز غير بعض الأسماء القليلة والقليلة جدا بين أصوات ذكورية هي المشهد الغالب .. ثم في السبعينيات وحتى التسعينيات كانت اسماء الكتاب من الذكور هي غالبة وإن اقتربت الأصوات النسائية من ٤٠٪، إلا أن الأسماء التي قرأنا لها في سنوات العقد الماضي واستمعنا لها في أماس أدبية قد قلبت النسبة لتتجاوز الأسماء القصصية النسوية حاجز الـ٥٠٪ وهي أصوات قوية ومن هذه الأصوات القاصة (ابتسام القاسمي) والفائزة مجموعتها القصصية البكر (أخيرا.. تجرأت) بجائزة المقالح في دورتها الأولى .

وهذه المجموعة تضم١) ٠٠ (نص قصصي في (١٠٠) صفحة من القطع الصغير .. ويقول الدكتور عبدالعزيز المقالح في كلمة تسطير المجموعة (هنا في هذه المجموعة الرائعة وهي الأولى للكاتبة الشابة ابتسام القاسمي كما يتداخل السردي بالشعري والذاتي بالإنساني وتتكون عن هذا الالتقاء الجميل بتفاصيله الصغيرة للحياة درجة عالية من فن القص في صورته الأحدث والأمتع والأكثر صفاء ورهافة).

فماذا علي أن أكتب بعد تلك المفردات والجمل التي وصف أديبنا الكبير نصوص القاسمي.. والقاسمي كتبت في مفتتح المجموعة ص (١٣) وأن كان في عباراتها بعض النرجسية اقتطف (أشكر كلية الآداب بكل جمالها وبمنتهى عفونتها ، فهي الفأس الأولى التي شرخت من داخلي فن القصة حين غيبت الألف والصاد الأخيرين من الكلمة .

أشكر بالذات من استفزني بقبحه أو بلادته ، أو حتى بجماله وأشكر من انتظر سقوطي فهو من دفعني لإثبات العكس له .

أشكر كل نظرات الحب والاعجاب التي استقصدتني بصدقها وكذبها فقد حفزتني لأن أعرف نفسي من أكون أنا، لم اضطر أحدا أن يجاملني بمقدمة يستعين بكل قواميس الكذب كي يطيب خاطري بها ، ويوقع المتلقي في فخ القراءة .

وقريبا مما أورده أستاذنا المقالح في تسطيره وما أوردته القاصة في مفتتحها يمكنني أن أقدم بعض نصوص المجموعة للقارئ.

نحت المواجع

بلقيس احمد الكبسي

جنون عاهر يتمرغ في أروقتنا بإرهاب.. شتت ماضينا .. عرقل حاضرنا .. وأعاق مستقبلنا، نحن البشر الضعفاء الذين لا حول لنا ولا قوة ماء يحيينا وقراره يميتنا نصنع كل هذا الألم والإجرام، نسفك الدماء، ونجندل الضحايا ونمزق أشلاء الأبرياء، من يشبه الآخر هل نحن نشبه الوحوش أم هي التي تشبهنا ..؟ لماذا لا نعيش في ود وسلام ووئام ..؟ لماذا لا نعيش في حب كالسماء التي لا حد لها ..؟

نحتتنا المواجع والآلام .. وعبث بنا الجبناء والمعتوهين ونحن صامدون بصمت، افتخرنا بصمتنا الرزين، لم نجد سواه للتعبير عن احتقارنا، يدفعوننا ضريبةٍ لغرورهم، وهكذا هو غرور الصغار مكلف جداً للأبرياء، لا ندري كيف يستطيعون النوم ..؟ ألم تقلق ضمائرهم الجبانة مضاجعهم ..؟ افتخروا بمواجعنا بهرج ومرج، وتشدقوا بأفواه من فصيلة الببغاوات.

ما أصعب معرفة ما يجلب السعادة ..؟ هربنا من أوجاعنا إلى أقاصي البعد فإذا بأبعد البعيد يلاحقنا، تفوح نتانة الخيانة مهما أحكمتها الأغطية، أرواحنا ما زالت تائهة لم تعد بعد لأبراجها، وأخلاقنا تدهورت وكادت تؤول للسقوط ، هي بحاجة ماسة لترميم عاجل، بحثنا في الذاكرة عن صور مشابهه فلم نجد، ما نراه حديث الاكتساب، الماضي برمته كانٍ هادئاً حتى جرائمه كانت أكثر تهذيبا وأقل شذوذاً، والغدر كان أكثر عقلانية، أما الآن فقد تهور بجنون، أسلافنا الذين لا يمتلكون ما نمتلك كانوا أكثر منا وطنية وولاء. ما أتعسها حياة البسطاء عندما تحال إلى جحيم ودمار..!!

تأفل سيطرة وتبزغ أخرى ونحن لها تابعون، لقد أصبح عالم الجنون أكثر متعة وأفضل عبثا من حياة العقلاء، على الأقل عالم الجنون لا يصيبنا بفيروسات السياسة، قد يلتبس علينا الأمر بين الصنفين العقلاء المجانين، والمجانيين العقلاء ومن منهم فعلا يجن ومن منهم يدعي الجنون ليمارس علينا فنونه، أي سياسة لا تخلو من القذارة .. وأيها تتطلب نظافة .. ؟ وهل هناك سياسة طاهرة ..؟ ثوب السياسة عاهر يكشف العورات فلماذا نلتحفه ..؟ هل لا بد منه ..؟ أم أنها أصبحت من ضروريات العولمة..؟

غابات مجهولة المسالك بددت طرقاتنا، لكن يجب علينا أن نبتسم، الابتسامة لا بد منها .. علينا أن نبتسم ، فما عاد لنا دواء سواها..؟ حتى إن كنا لا نتقن أداءها.. فعلينا أن نتدرب على الابتسامة باحتراف أو بجنون كما يفعل الـ ....

إصدارات ثقافية

الثقافة والبربرية الأوروبية

■، مؤلف هذا الكتاب هو إدغار موران الأستاذ المتقاعد الذي ما زال يعمل مديرا للدراسات في مركز الأبحاث القومي العلمي الفرنسي والذي نال بسبب تبحره العلمي شهادات الدكتوراه الفخرية من عدة جامعات في العالم. ويعتبر إدغار موران واحداً من أهم علماء الاجتماع والذي تميّز بكثرة مقالاته ومؤلفاته على امتداد أربعين عاما ومن بينها:

الإنسان والموت (١٩٥١)، النقد الذاتي (١٩٥٩)، مدخل إلى سياسة الإنسان (١٩٦٥)، المنهج (٦ مجلدات ١٩٨١ - ٢٠٠٣)، علم الاجتماع (١٩٨٤)، مدخل إلى التفكير المعقد (١٩٩٠)، الاقتتال الأخوي (١٩٩٦)، من أجل الدخول في القرن الواحد والعشرين (٢٠٠٤).

كانت أوروبا مركز السيطرة البربرية على العالم خلال خمسة قرون، بنفس الوقت الذي كانت فيه وطن الأفكار التحررية التي ضعضعت هذه السيطرة. بهذا يجب إدراك العلاقة المعقدة، التناحرية والتكاملية بين الثقافة والبربرية، ومن هنا موضوع الكتاب.

فالتجارب المأساوية التي حفل بها القرن العشرون كانت مقصودة، ويجب أن تقودنا اليوم إلى وعي إنساني جديد. فليس المهم إعلان الندم أو التوبة بقدر ما يهم الاعتراف بما حصل لعديد من الجماعات البشرية على يد السيطرة الأوروبية لأنه يشكل شرطا لتجاوز البربرية.

ذلك أن عودة هذه الأخيرة تشكل باستمرار جزءاً من حقائق المحكمين.في الفصل الأول يطرح الكاتب مسألة البربرية البشرية والبربرية الأوروبية مبيّنا أن ما طرح من مفاهيم عن الإنسان المتعقل أو الإنسان التقني أو الإنسان الاقتصادي غير كافية لفهمنا الكائن البشري بحد ذاته. فالإنسان الذي يستخدم عقله استهدافا للصواب والحقيقة يتصرف أيضا بشكل أخرق وهذياني.

والإنسان الذي يصنع الأدوات للسيطرة على الطبيعة قادر على إنتاج الأساطير والخرافات. والإنسان الاقتصادي الذي يوجه سلوكه من خلال حاجاته ومنفعته الخاصة، يمكن أن يكون أيضا إنسان إسراف وتبذير.

هكذا لا بد من الأخذ بعين الاعتبار هذه الصفات المتعارضة في الكائن البشري، وأن تصور بربريته يأتي من هذا الجانب اللاعقلاني وبالأحرى الفلهوي الذي يفقده التوازن والصواب، وينتج لديه الهيجان والحقد والازدراء والمغالاة، ذلك أننا نعتقد أحيانا كثيرة أننا في حالة عقلانية تسيطر علينا، في حين أننا في وضعية تعقّل، أي في نظام منطقي صرف نرى فيه الأمور، وفي حين أن هذا التعقل يمكن أن يستخدم من أجل نزواتنا.

والإنسان الصانع للأدوات صنع الأساطير والخرافات. لقد أعطى الحياة لقوى ضارية وشرسة تقوم بأعمال بربرية بحيث أن عالم الأدوات تواجد مع عالم المتخيلات في الثقافة البشرية، وهذا يعني أن الإنسان الصانع للأدوات كان يعبر عن بربريته عبر آلهة انتقامية مريعة تدعو بدورها الناس إلى البربرية؟

وكعالم الأفكار والمتخيلات، فإن التقنيات التي يصنعها الإنسان اليوم من شأنها أن ترتد عليه. فالعصر القائم يبين أن التكنولوجيا تتعاظم في الانتشار لتفلت من زمام الإنسانية التي أوجدتها في الوقت الذي تنتج فيها بربرية خاصة بها ألا وهي بربرية الحساب الجامد، البارد الذي لا يحفل بالحقائق الشعورية والعاطفية للفرد البشري. باختصار نجد في هذا كله إمكانيات واحتمالات البربرية التي تظهر في كل الصفات الخاصة بالنوع الإنساني.

هذه المجتمعات لا يوجد ما يجمعها بالمجتمعات التاريخية التي انبثقت عن التحولات التاريخية التي جرت منذ ما يقارب ٨ آلاف سنة عبر الأرجح، وذلك في منطقة الشرق الأوسط، وفي الصين أو المكسيك. فالتحولات تلك خلقت حضارات لمجتمعات كثيفة السكان، تمارس الزراعة، وتبني المدن وتقيم الدول، ، وتطور التقنيات. وحتى إذا سلمنا بوجود نوع من البربرية في المجتمعات القديمة، فإننا نجد بربرية أخرى في المجتمعات التاريخية مرتبطة بالدولة والتوسع والاسترقاق.

لقد تمت في هذه الفترة غزوات وحروب تتعدى الحاجة الحيوية لمن يقوم بها وتتجسد بأعمال الهدم والنهب وسبي النساء والعبودية المختلفة. هناك إذن بربرية تبرز وتطلق عنانها مع نشوء الحضارة.

لقد خلقت المسيحية تيارات فكرية متعددة وتأويلات مختلفة للمشيئة الربانية، ولكن عوضا عن تكريس ذلك كأفق حضاري لها، فلقد أوجدت أرثوذكسية عقيدية واحدة وصارمة تجعل من كل ما يفكر بغيرها «هرطيقا» والعمل على ملاحقته وتكفيره وتصفيته.

هذا يدل على أنه إذا كانت البربرية ليست حكراً على أوروبا، فلقد أبدت هذه الأخيرة نفس أعراض بربرية المجتمعات التاريخية المشار إليها، بل وبشكل أكثر قوة وابتكاراً خاصة مع تشكل الأمم القومية الأوروبية: إسبانيا، فرنسا، البرتغال، بريطانيا. وهذا التشكل القومي مختلف جذرياً عن المدن ـ الدول الشرق أوسطية وعن الإمبراطوريات السابقة. فهي تجمع في إطارها جماعات بشرية لأقوام متعددة يراد دمجها وصهرها في هوية قومية مشتركة مترافقة بأعمال بربرية، كما يشهد المثال الإسباني مثلا.

فالمنطقة الإسلامية فيها أي الأندلس كانت تتمتع بتسامح ديني نموذجي ينعم به المسلمون والمسيحيون واليهود حتى عام ١٤٩٢ لتجري بعد ذلك وباستيلاء الاسبان على غرناطة فرض اعتناق المسيحية على المسلمين واليهود أو طردهم من إسبانيا بحيث قامت الأمة الإسبانية على التطهير الديني وعلى التطهير الاثني ـ الديني أيضاً لماذا؟ لأنه شاعت في قسم واسع من الأرستقراطية والبورجوازية الإسبانية نزعة عدوانية دينية عرقية ـ عنصرية اجتمع الصفاء العرقي (الدم) والصفاء المذهبي (الدين) لإضعاف الآخرين وسبيهم.

ويمكن اعتبار هذه التصفيات «مرضاً طفولياً للأمم الغربية الحديثة» التي ستعرف باستلهامها «عصر الأنوار» مفهوماً جديداً للأمة انبثق مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . فبعد سنة من الاستيلاء على «الباستيل» اجتمع مفوضو الفيدراليات الفرنسية لإقامة وطن للأمة الكبيرة ـ لا ديني ولا عرقي ـ بمعنى أن أمة كفرنسا قد تم صنعها كنتاج للإرادة المشتركة لأبنائها في العيش المشترك والتقرير بحرية في شؤونهم.

هذا المفهوم متعارض أيضاً مع فكرة بناء الأمة على أساس الأرض واللغة والثقافة كمحررات لإقامة الدولة ـ الأمة.ولكن لا يعني هذا أن أوروبا قد تخلصت بسهولة من المشكلة الدينية ـ الاثنية كما نجد في أيرلندة الشمالية حتى اليوم وإن كانت هذه المشكلة في طريقها إلى الحل بعد أن عرفت مختلف أنواع البربرية فيها.

ومن الطبيعي ألا نقصر الأمة على الجوانب البربرية التي أنتجتها، لأنها عامل دمج لمختلف مجموعاتها السكانية وتفاهمها وتعاونها، لكن هذا لا ينفي أيضاً جانباً آخر قامت به الأمم الأوروبية في غزو الشعوب والأمم الأخرى بقوة السلاح الحديث وما نجم عنه من آثار فادحة على هذا المستوى أو ذاك.

هذا يعني أيضاً أن نقول في الوقت نفسة إن خمسة قرون من البربرية الأوروبية أدخلت منتوج المعطيات الحضارية لماذا؟ لأنه من خلال «عولمة البربرية» حدث اختلاط في الثقافات وتحت تبادلات، وانتشرت تقنيات ومعارف، دعّمت قيم وأفكار اليوم يتم السجال حول إدخال «السمة الإيجابية» للاستعمار الفرنسي في الكتب المدرسية في الوقت الذي تتلخص فيه القضية كلها،

فيما إذا كانت السمة الإيجابية هذه أساسية أم ثانوية، وبربطها بإطار عام واسع في العلاقة المعقدة التي رأيناها بين البربرية والحاضرة وهذا لا يعني بأي شكل من الأشكال تبرير الأعمال البربرية وإنما فهمها وبالتالي عدم سيطرتها على أذهاننا والعمل على عودتها. لقد توقفت الأمم الأوروبية عن أن تكون أمماً استعمارية، بحيث أن بربريتها بدأت تتراجع لخلق مجال أوروبي تكنولوجي ـ اقتصادي ـ ثقافي واحد، بمعنى أن المضادات الحيوية البربرية قد لعبت دورها في قلب البلدان الأوروبية وبما يسمح بتعريف أوروبا اليوم.

في الفصل الثاني يتعرض الكاتب للمضاد الثقافي الحيوي بالضبط. فمنذ القرن السادس عشر حدث تحول كبير مع النهضة الأوروبية التي أنعشت التراث اللاتيني والإغريقي، ربما أدى لتحرير الفكر الإنساني وانطلاق العمران والفلسفات الحديثة وتنمية مناقب الإنسان وقدراته وجعله هدفا للحياة البشرية.

وهذه النزعة الإنسانية التي استمرت والتي جعلت من الإنسان الفاعل الوحيد في العالم وتبلورت لدى الفيلسوف «ديكارت» بمهمة قيام الفرد البشري بفتح العالم بفتح العالم ليصبح سيد ومالك الطبيعة وامتدت حتى المفكر»ماركس» قادت إلى تردي المحيط الحيوي للبشر وإلى روح التفوق الأوروبية على المجتمعات الأخرى بحيث لا بد من مواجهتها بجانبها الثاني أي احترام موجودات الطبيعة وكافة الثقافات والمجتمعات الإنسانية.

فإذا كانت النظرة الأوروبية للمجتمعات الأخرى قائمة إلى حين على أنها متخلفة وبدائية ـ مسجونة في التفكير السحري والأسطوري ـ فلابد من القول إن «كل مجتمع إنساني يحمل تفكيراً عقلانياً، ثقافياً وعملياً، كما ويحمل تفكيراً سحرياً وأسطورياً»، بما في ذلك المجتمع الأوروبي.النزعة الإنسانية بهذا صالحة لكل البشر، ولكن الغرب قصرها على نفسه، وهي تحتاج اليوم إلى ربطها بالعقلانية النقدية بل وبالعقلانية النقدية ـ الذاتية أي اعتبار كل منا موضوعاً للمعرفة والنقد.

وللأسف فإن العقلانية النقدية ـ الذاتية ستصبح جانبا جزئيا من النزعة الإنسانية الأوروبية. ففي القرن الثامن عشر (عصر الأنوار) أصبحت العقلانية مجرد نقد يرى في الديانات نسيجا من الخرافات بحيث تم اختزالها دون الأخذ بعين الاعتبار مما سيشير إليه ماركس في أن الدين يمثل في جانب هام منه «زخرة البائس» الذي يعبر من خلالها عن تطلعاته العميقة الإنسانية. مع ذلك فإن العقل سيستمر في انتصاراته خاصة مع الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية.

وفي القرن التاسع عشر سيبدأ تخمر جديد للنزعة الإنسانية الأوروبية مع المفكر الاشتراكي وخاصة مع ماركس الذي «صاغ أطروحة ممتازة فلسفية وفكرية في خدمة تفتح الشخصية الإنسانية»، هذا التفتح الذي تحمله الاشتراكية كتطلع لمزيد من الحرية والمساواة. والحقيقة أن الماركسيين الرسميين (السوفييت وغيرهم) اعتقدوا أنهم يمارسون بتطبيقاتهم عقلانية خالصة دون أن يعوا الجانب البربري فيها. هناك فكرتان:

الأولى أن أوروبا الغربية كانت مركز السيطرة الأوسع والأفدح على العالم، بنفس الوقت الذي كانت فيه بؤرة الأفكار المحررة والحضارية. والثانية هي «السيرورة العالمية» التي بدأت منذ احتلال القارة الأميركية حيث أصبح العالم نظام اتصال سيتسع أكثر فأكثر وإن كانت هذه السيرورة العولمية غير مفصولة عن إخضاع الشعوب الأخرى.

لكن بذور الحرية ومبادئ حقوق الإنسان والشعوب وحق الاختلاف وحقوق الثقافات كانت تواكب أيضا وتغذي هذه العولمة. فهذه الأخيرة لا يمكن اختزالها إلى ما هو اقتصادي وسلعي وتكنولوجي بقدر ما أنها تتغذى بنفس الوقت بـ«العولمة الأخرى» أي عولمة في خدمة الإنسان والإنسانية ومن أجل مواطنة عالمية. وهكذا فإن العولمة ليست ما يجب التأسف عليه وإنما عدم ضبطها وتوجيهها وإيجاد سلطة شرعية ذات بعد عالمي للتحكم بها.

× الكتاب: الثقافة والبربرية الأوروبية

× الناشر:بايار ـ باريس

× الصفحات : ٩٤ صفحة من القطع المتوسط